بلاغة الرسالة البصرية
مقاربة في تلقي حادثة الحذاء من خلال نماذج من الكاريكاتور العربي

الدكتورة: نوال بن صالح
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

ملخص المقال:

يمارس فنان الكاريكاتور بلاغة جديدة يستمدها من سخرية الرسم و سخرية النص،فتتعاضد بذلك البلاغة اللسانية مع البلاغة البصرية لتمارس شكلا مثيرا من أشكال التعبير الإنساني لا يترك المتلقي محايدا.من هنا تتجلى أهمية هذا البحث في استنطاق آليات إنتاج هذه البلاغة الجديدة من خلال نماذج من الكاريكاتور العربي الذي أنجزت عقب حادثة رشق الرئيس الأمريكي"جورج بوش" بالحذاء.

مقدمة

نعيش اليوم في عالم تتخلله الصورة بشكل سريع و واضح، بدءً بالصحيفة والكتاب، ومرورا بالإعلانات المختلفة و انتهاءً بالتلفاز و الإنترنيت،حيث غدا من المستحيل التفكير دون صورة على حد قول أرسطو.من هنا صار عالم النفس البشرية عالما تشغله صناعة الصورة إلى حد بعيد،حتى عُدّ هذا العصر الذي نعيشه عصر ما بعد المكتوب،عصر الصورة و المجتمع الفُرجوي . و لذا كانت اللغة البصرية التي يتم عبرها توليد مجمل الدلالات داخل الصورة، هي لغة بالغة التركيب و التنوع[1]، ومن هنا أصبحت الصورة تنال حظوة كبيرة لدى المرسل و المتلقي على حدّ سواء.

مفهوم الصورة الكاريكاتورية:

إنّ الصورة هي المادة الأساسية للرسم، و هذه المادة الأولية ،ما هي إلاّ حقيقة معقدة للغاية، وهي في الرسم تتأسس على معان هامة تلزمنا بتمثل العالم صوريا، بمعنى أنّ قول الرسم هو قول بصري، بحيث تتحول وسائل الإدراك و التخيل والمعرفة مجتمعة إلى صورة،ثم تتحول هذه الصورة إلى حيثية أيقونية تطابقية. وللصورة في الرسم خصائص

متعددة يمكن للباحث فيها إيجاد محورين أساسين:صورة تحاكي الواقع، و صورة أخرى تعبر عنه،صورة الحقيقة وصورة المرآة[2]. والرسم الكاريكاتوري من أشكال الصورة التي تعبر عن الواقع.

و**الكاريكاتور** فن صاعد من فنون العمل الصحفي، و ريشة مبدعة تشكيليا، ونقد ساخر سياسيا و ضحك لاذع اجتماعيا، و قد ازداد الاهتمام به عندما تجاوز الترفيه و الهزل إلى لعب دور معايشة واقع الوطن و المواطن، بتجسيد همومهما، ومعاناتهما السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و غيرها، حيث الوظيفة الأساسية لرسوم الكاريكاتور عوضت عن مقالات طوال كما قال نابليون. و الكاريكاتور كلمة لاتينية معناها رسم يغالي في إبراز العيوب ،و هي مفردة يقابلها في اللغة الإنجليزية كلمة:"Characters" بمعنى شخصيات أو شخوص و موضوع ما،يهدف إيصال الفكرة بشكل مقصود و بأسلوب ساخر مبالغ فيه. لقد ظهر فن الكاريكاتور نوعا فنيا متميزا يستهدف النقد الاجتماعي والسياسي في أوربا في القرن السابع عشر. والأصل اللغوي لكلمة "كاريكاتور" أنها تأتي من الفعل اللاتيني:"Caricare" و تعني رسما يغالي في إبراز العيوب بغية السخرية منها [3].

والحقيقة أن هذا المعنى يستجيب لوظيفة الكاريكاتوري التي هي تغيير سمات الوجه، وتضخيمها،أو تصغيرها بشكل مفرط.[4]

ويعترف الباحثون بأنّ تحديد تاريخ دقيق لظهور فن الكاريكاتور في العالم بوصفه نوعا فنيا، هو أمر صعب للغاية،ذلك أنّ المتاحف العالمية تحتفظ بالقليل جداّ من المنتجات اليونانية و الرومانية التي نستطيع أن نلتمس فيها نزعة من التصوير الساخر المبالغ فيه،الخارج عن قانون الجمال اليوناني الباحث عن التكامل بين أعضاء الجسد البشري،والتناسب الحقيقي والمحاكاة الطبيعية الحية [5].

إلا أنّ هناك من ذهب إلى أنّ الرسام الفرعوني كان يستخدم الحيوانات و الرموز البسيطة للتعبير عن رأيه الحقيقي، وفي ذلك روح ساخرة. ويعتبر كل من أنابال كاراسي"Caracci" و برنيني "Gian Lorenzo Bernini " هما الرائدان الحقيقيان لهذا الفن[6].

وقد ارتبط هذا الفن ارتباطا وثيقا بالصحافة، لذلك فهو يعمل ضمن إطار ما يطلق عليه الصورة الصحفية التي تدعم المقال أو التحقيق الصحفي. والصورة الكاريكاتورية وسيلة اتصالية ناجعة نتيجة جملة الخصائص الاتصالية التي تمتلكها. و من

هذه الخصائص نذكر سرعة أكبر في لفت الأنظار،ذلك أنها أكثر الأنواع الصحفية من حيث جذب انتباه القراء و لفت الأنظار نحوها. هذا بالإضافة إلى سرعة أكبر في الفهم، و إمكانية التأثير، أضف إلى ذلك تحقيق قاعدة أكبر من المتأثرين،ذلك أن أكثر القراء يركزون على الصفحة الأخيرة من الصحف و الجرائد و التي عادة ما تتضمن الرسم الكاريكاتوري الساخر.

مقاربة لنماذج من الكاريكاتور العربي تناولت حادثة الحذاء:

لا تقف البلاغة عند حدود النص المكتوب،بل إنّ الصورة أيضا يمكن أن تتضمن أحداثا بلاغية على عكس ما كان سائدا عند البعض من أنّ البلاغة حكر على اللغة.

اهتم رولان بارت"Roland Barthes" بصفة خاصة بالصورة الإشهارية ،كما اهتم بالأنساق الدلالية غير اللسانية في تحليله السيميولوجي خاصة في بحثة في بلاغة الصورة.

و من خلال تحليلنا لمجموعة من الرسوم الكاريكاتورية العربية التي تفاعلت مع حادثة رشق الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن بالحذاء في العراق،سوف نرى كيف تتجلى البلاغة في الريشة الساخرة العربية و بصورة مذهلة، قد يعجز النص اللغوي نفسه عن بلوغها، بل و تتعاضد الصورة مع النص لتنتج بلاغة جديدة لسانية و غير لسانية.

اخترنا نماذج ستة من رسومات الكاريكاتور[7] العربي المنجزة عقب الحادثة الشهيرة يوم الرابع عشر من ديسمبر العام 2008 قبيل نهاية ولاية الرئيس الأمريكي بوش الابن بسبعة عشريوما، كان ذلك أثناء مؤتمر صحفي للرئيس الأمريكي صحبة رئيس الوزراء العراقي "نوري المالكي"، و بحضور الصحافة العربية والعالمية. هذا المؤتمر الذي كان من المفترض أن يحوصل فيه الرئيس الأمريكي بوش ما قدّمته سياسته خلال فترة احتلال الجيش الأمريكي للعراق منذ سنة 2003.

النماذج المختارة للتحليل منشورة على الموقع الإلكتروني على شبكة الإنترنيت تحت عنوان"George w shoes" و تبدو السخرية اللاذعة من الوهلة الأولى حيث استبدل اسم بوش بلفظ "shoes" الذي يعني "الحذاء" بالإنجليزية ليعلن من الوهلة الأولى عن سخرية لاذعة من شخص الرئيس و سياساته.

آليات تنفيذ البلاغة الكاريكاتورية:

تعتمد البلاغة الكاريكاتورية في تنفيذها على جملة آليات تتواشج بشكل كبير مع البلاغة اللسانية،فتمارس عبقرية الريشة و الألوان مثلما تستعين بمقدرة اللغة على المراوغة و المحاورة والتخفي و من ثم الإحالة إلى عوالم ممكنة عديدة، تجعل من المتلقي نفسه طرفا في إنتاج البلاغة. ومن هذه الوسائل التي يحقق بها الكاريكاتور درجة من البلاغة تزيد أو تنقص تبعا لعوامل أخرى تتصل بتلقي النص،نجد بلاغة:العنونة و التناص و العامية و البورتريه و السخرية .

<u>الرسم الأول</u>: بلاغة العنونة

صاحبه محمود الرفاعي من الأردن و هو يقارب الحدث بريشة حساسة بتصوير الموقف تصويرا ساخرا ،حيث يبدو وجه الرئيس بوش بشع الملامح بأذنين كبيرتين مما يوحي بالغباء و البلادة هذا إلى جانب تسريحة شعر تميل على الجانبين لتكوّن شبه قرنين في دلالة صريحة على تشبيه بوش بالشيطان.تتقاطر على وجهه حبيبات العرق، في إشارة إلى الموقف المخجل الذي تعرض له الرئيس، يقف بوش خلف الميكروفون،وراءه العلم الأمريكي ، كالعادةــ شامخا شموخ الدولة العظمى.

ولعل أبرز ما في الرسم، هو الحذاء الذي يطير بسرعة البرق في اتجاه بوش، وهو في غفلة تامة. ورغم قلة الأدوات المستعملة من طرف الرسام، إلا أنه استطاع

وببراعة أن يوظف النص اللغوي رافدا تعبيريا قويا للرسالة البصرية الساخرة ،التي أراد أن يتواصل بها مع المشاهدين أو المتلقين بجملة بالغة الرمزية ،هي جملة العنوان التي تلخص في بلاغة و إيجاز رسالة الرسم الساخر "**الحذاء المنتظر**" فقد استعان الفنان باسم منفذ "الهجوم" الصحفي:"منتظر الزيدي" مستبدلا لفظ "المهدي" بلفظ"الحذاء" موحيا بدلالات قوية عن طريق استحضار المعتقد الديني الشيعي في الحدث السياسي الآني، حين يتحول تصرف منتظر الزيدي ،كأنه حدث أعاد للأمة العربية كرامتها المهدورة، وردّ إليها شيئا من اعتبارها بعد احتلال العراق،مثلما سيفعل ذلك المهدي المنتظر حسب المعتقد الشيعي.

الملاحظ أن من وسائل بلاغة الرسم الكاريكاتوري اختيار النصوص اللغوية الذائعة على ألسنة الناس من جهة،و التركيز على تناغم النص مع الحدث المصور من جهة أخرى في محاولة للتناص مع الموروث اللغوي العربي. فالنص اللغوي المرافق للرسم الكاريكاتوري في سياقه الآني يختزل دلالات لا متناهية إنه يوحي للمتلقي بآفاق تخييلية قادرة على استيعاب ما هو موجود في الرسم و ما يمور في وجدانه و ذهنه.

الرسم الثاني: بلاغة التناص

لصاحبه سعد حجو من سوريا، وهو يقارب الحدث بشكل مختلف،حيث يستحضر النص الأدبي و بالذات المثل العربي القديم في الرسم،و يوظفه مقوما من مقومات التراث

العربي لتصوير الحدث السياسي الذي يتناص مع النص التراثي. فيبرز المثل العربي:" **عاد بخفي حنين**" الذي يضرب لخيبة الرجاء. أما في التعليق الذي اختاره الفنان ليدعم به الرسم الذي يمثل الرئيس "بوش" في وجه بشع غير متناسق الملامح، حافي القدمين،يولّي هاربا ويلاحقه زوج الأحذية بسرعة شديدة، و ما زاد من بلاغة الرسم أنّ الفنان يستحضر المثل العربي في صيغته الأصلية بدايةً، ثم يضع علامة (×) على لفظ حنين ليعوضه بلفظ: "منتظر" في محاولة بليغة لتحقيق انزياح استبدالي يحقق مثلا جديدا بسياق مختلف وإيحاء كذلك.

الرسم الثالث: بلاغة العامية

رغم الاتفاق الكبير من قبل الأدباء و المثقفين و حتى رجال الدين حول ضرورة الحفاظ على أصالة اللغة العربية و صونها من التغيير أو استبدالها باللهجات المحلية الدارجة التي نادى بها كثيرون في القرن الماضي،إلا أن الجميع اتفق على اعتبار الكاريكاتور خارج هذه القاعدة، لأن اللهجة تكون أقرب إلى مسامع و إدراك كل القراء باختلاف مستوياتهم من اللغة التي تعتبر وسيلة التواصل الرسمي في الجهات الحكومية و الإدارية و الإعلامية المختلفة.

يقارب الرسام باقي بوخالفة من الجزائر حادثة الحذاء كاريكاتوريا، و هو أيضا يستعين بحدث ديني لترجمة الحادثة الشهيرة بريشة ساخرة . أما الحدث الديني فهو شعيرة الحج التي يؤديها ملايين المسلمين في العالم كلّ سنة. وقد ركزّ الفنان على منسك من مناسك الحج هو رمي الجمرات. يصور الرسم حاجين جزائريين يلبسان ملابس الإحرام ، وهما يؤديان هذا المنسك ذا الدلالة الروحية البعيدة و هم حفاة، ذلك أنهم استغنوا عن أحذيتهم التي حولوها إلى حصوات الرجم، فتتحول الأحذية إلى أدوات الرجم ويتحول بوش إلى إبليس المرجوم. فقد وظف الرسام هذا المنسك الديني توظيفا رائعا للسخرية من المرجوم نفسه، و رغم أنّ الرسم و أيقوناته لا تُظهر الرئيس بوش صراحة و لا حادثة الحذاء ،إلاّ أنّ عناصر الرسم كلها وتحيل على الحدث الشهير. و مما يزيد الفكرة في الرسم قوةً النص اللغوي المرافق الذي يقول:" **عودة الحجاج بعد أداء الرجم**" مع التركيز على اللفظ الأخير ووضعه بين علامتي تنصيص في دلالة واضحة على السخرية .،حيث تزيد علامة الترقيم المختارة من قوة الإيحاء و بلاغة النص اللغوي. وإلى جانب تبشيع المقذوف و" شيطنته"، يضيف الرسام نصا على لسان أحد الحاجين يتضمن شتيمة على الطريقة الجزائرية وباللهجة الدارجة. فاستعمال العامية في الرسم الكاريكاتوري يكون في بعض الأحيان أكثر من ضرورة، من أجل تحقيق هدفين: الهزء والاستخفاف من جهة، وتقريب الرسم من الواقع من جهة أخرى.

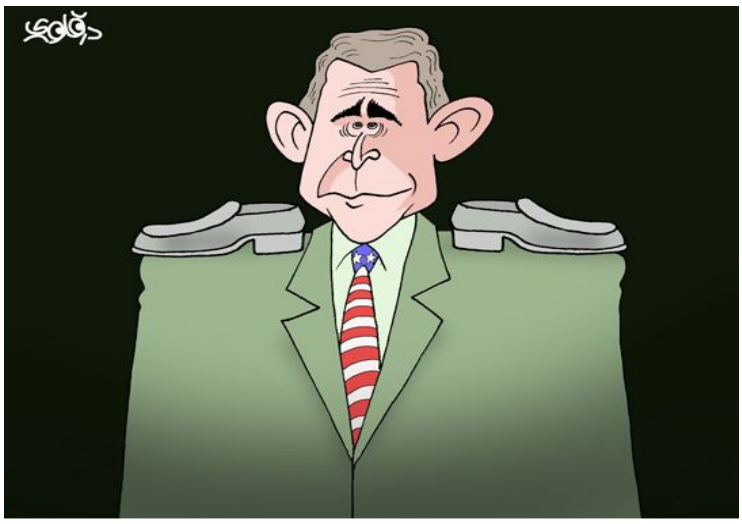

الرسم الرابع: بلاغة البورتريه (Portrait)

البورتريه في فن الكاريكاتور هو محاكاة وتقليد صور الشخصيات المشهورة في المجتمع لتقديمها في لوحة كاريكاتورية، أو لتقديمها ضمن مقال أو زاوية أو تغطية في صحيفة أو مجلة. ويكون البورتريه في الكاريكاتور مماثلا للصورة الواقعية إلا أن الفنان يعمد إلى التلاعب ببعض نسب الوجه حتى يضفي عليها بعض السخرية و الطرافة.[8]

النموذج للفنان المغربي درقاوي عبد الله، و هو رسم بليغ قوي،رغم تخلي الرسام عن النص اللغوي المرافق، فنجده قد اكتفى برسم كأنه صورة فوتوغرافية أو "Portrait": ، بخلفية سوداء تعلوها صورة الرئيس بوش بجسم عريض الكتفين، و أذنين كبيرتين في حركة مفارقة لصورة "البورتريه" الحقيقية التي تنقل التفاصيل و الملامح بأمانة .هذا بالإضافة إلى ملامح الوجه المشوهة و غير المتناسقة يرتدي الرئيس بوش بدلة عادية و يربط عنقه برابطة رسم عليها العلم الأمريكي . لكن مفتاح الرسم يكمن في "نيشاني" الرتبة المعلقين على كتفي الرئيس واللذين يمثلان زوجي أحذية ، في دلالة مكثفة، ومشبعة و بليغة على ما يستحقه بوش بسبب سياسته في العراق. فالرسام يقر صراحة بتقليد الرئيس بوش وسامين، لكنهما من أحذية، في رفض واضح لسياسة بوش التي مارسها في العراق طيلة فترة ولايته. قد يكون هذا الرسم قليل الأيقونات يميل إلى الإيجاز،لكن مع ذلك نجده يكشف دلالات عديدة ويوحي بظلال كثيرة: لغوية وفكرية وسياسية.

الرسم الخامس:بلاغة السخرية

للفنان الفلسطيني محمد سباع، و يظهر الرئيس بوش هذه المرة في جسم يحمل وجها شديد الانتفاخ، وعينين بالغتين في الصغر، وخلفه يظهر العلم الأمريكي شامخا كعادته. أما بوش فيقف خلف الميكروفون ويصرح في لحظة مكاشفة تاريخية، يقول:" **على العراق الكشف عن برنامج كنادر الدمار الشامل**" ولفظ "كنادر" في اللهجة الشامية يعني أحذية. فالنص اللغوي يؤدي ببراعة وظيفة السخرية في استخفاف واضح من بطلان الذرائع التي شنت أمريكا على خلفيتها الحرب على العراق، وهي وجود أسلحة الدمار الشامل، التي لم يعثر لها على أثر بعد الغزو. وكأن بوش قد وجد أخيرا مبررا لوجود قواته في العراق. فالنص اللغوي هنا يشتغل بشكل مواز مع الأيقونات البصرية، و لذلك فإنّ إرفاق الرسوم الكاريكاتورية بإرسالية لغوية للتعليق أو التوجيه أو التضليل، يوجه المتلقي الوجهة التي يريدها الفنان من الرسالة. و هذا ما يؤكده الرسم الصغير في الأعلى على الجانب الأيسر، حيث تبدو الكرة الأرضية محاطة بالأشواك، في إشارة إلى تعرض العالم لمخاطر جسيمة بسبب سياسة أمريكا في المنطقة العربية.

الرسم السادس:بلاغة المحاكاة (الباروديا)

استقرت "الباروديا" كممارسة ساخرة في الأدب منذ قرون طويلة،و المحاكاة الساخرة نوع من التهكم يشير إلى تقليد أو استعارة أسلوب أو مفردات أو طريقة نص معين مع اختلاف المضمون بهدف السخرية أو الفكاهة.و في هذا النموذج يمارس الرسام "الباروديا" من خلال تقليد عرض إشهاري مع تغيير شخوصه و تفاصيله.

الرسم لربيع العريضي، وهو ينظر إلى الحدث رؤية مختلفة عن رؤية التشفي مما حدث لبوش، والتي تغلب على مقاربة الحدث في الرسوم السابقة ،حيث نجد الرسم يمثل شخصين عاملين، يقومان بتعليق لافتة إشهارية لمحل أحذية، تتضمن الجملة الآتية: "**أحذية العراق الديمقراطية**" وفي الواجهة نرى الرئيس بوش يروج للبضاعة، فيحمل البضاعة ــ أي زوج الأحذية، ويضع على رأسه زوجا آخر، مع شعار إشهاري يقول:" **لسنا الوحيدون لكننا الأفضل**" في محاولة ترويجية للديمقراطية المزعومة التي يدعي الأمريكان أنهم أرسوا دعائمها في العراق و الحجة لديهم هي جرأة صحفي عراقي على رشق رئيس أكبر دولة في العالم بالحذاء. دون أن يقتل في لحظتها.و الملاحظ أن الفنان يقصد تركيب العبارة بعربية مهملة للقواعد النحوية كما عادة اللوحات الإعلانية.

الخلاصة:

يعد فن الرسم من أقدم ما وصلنا من أشكال التعبير الإنساني(9). يقولون إنّ فن الكاريكاتور هو الفن الوحيد الذي لا يحتاج إلى شرح، وأنه مرصد هزلي للواقع ولم تكن مقاربتنا للرسوم الكاريكاتورية المختارة شرحا بقدر ما كانت محاولة استكناه البلاغة التي يمكن أن تحققها الصورة الكاريكاتورية عبر الوسائل الفنية واللغوية والأيقونية والخطوط و النصوص اللغوية الرافدة،في حيز ما أتيح للرسام من حرية الرؤية الساخرة للعالم من حوله.

وقد خلصنا إلى أن مجمل النصوص المختارة على اختلاف بلدان أصحابها، تعاملت مع الحدث برؤية ساخرة،و نظرت له من منظور أنه شكل من أشكال الانتصار للحق العربي على الظلم الأمريكي، حتى و لو كان هذا الانتصار رمزيا . و كأنّ جرأة منتظر الزيدي ثأرت للكرامة العربية ،ولو بضربة حذاء لم تصب هدفها في النهاية.إلاّ أن الحدث نفسه قزّم الرئيس الأمريكي، سيما أنّه ضرب بالحذاء، مع ما لهذه الوسيلة من دلالات القذارة و الخسة في الثقافة الشرقية. لكن الحذاء بعد الحادثة اكتسى دلالات جديدة، تحيل إلى الحجر الفلسطيني،من ضمن ما تحيل إليه، إنه سلاح جديد لمن لا يملك سلاحا.

الهوامش:

(1) سيميائية الصورة،مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم،قدور عبد الله ثاني،دار الوراق للنشر و التوزيع،عمان الأردن ،ط1، 2008، ص:84.

(2) الفن التشكيلي، قراءة سيميائية في أنساق الرسم، بلاسم محمد، دار المجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص:76.

(3) ينظر منى جبر: فن الكاريكاتير، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977، ص:07

(4) سيميائية الصورة، قدور عبد الله ثاني، ص:185.

(5) المرجع نفسه، ص:184.

(6) المرجع نفسه، ص:185

(7) الموقع الإلكتروني:www.arabcartoons.com

(8) طلال فهد الشعشاع: فن الكاريكاتير،دراسة علمية نظرية وتطبيقية، النادي الأدبي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1 2011، ص:52.

(9) Voire ,comprendre, analyser les images, Bussière camedan imprimeries,3 Édition ,p :42